مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 313-326

تجليات الالتزام في أدب المقاومة– روايات مالك حداد– أنموذجا.

Manifestations of commitment in the literature of resistance - .Malik Haddad's novels - a model

فلاحي نوال، جامعة الشلف، (الجزائر)، nnawal505@gmail.com

تاريخ إرسال المقال: 12-08-2021 تاريخ قبول المقال: 10-12-2021

الملخص:

يعتبر أدب المقاومة من الآداب الإنسانية المهمة وهو من أهم المواضيع الّتي كتب عنها الأدباء في مختلف الأجناس الأدبية خاصةً الرّواية، لما له من تأثير في نفوس الغير والنّهوض بهم وبعث فيهم روح التّفاؤل فهو نابع من مشاعر حقيقية للتّعبير عن النّفس، وهو أدب وعي ويقظة يهدف إلى إيقاظ نفوس وعقول الشّعب للجهاد وتجاوز الأزمات. وأدب المقاومة جاء حاملًا لقضية ما والالتزام بها والدّفاع عنها وعن وطنه ورفض المُستَعمِر وبه يحارب الأديب بقلمه وكتاباته، كما يساهم في بلورة القيم الوطنية الثّورية للقضاء على المستعمر. يهدف هذا البحث إلى تبيان تجليات المقاومة في المتن الرّوائي الجزائري لمالك حداد الّذي تميّزت رواياته ببروز ملامح المقاومة الرّافضة للعدو وتمسكه بعدالة القضية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: أدب المقاومة–ليس في رصيف الأزهار من يجيب–الانطباع الأخير–التّلميذ والدّرس–مالك حداد.

Abstract: Resistance literature is considered one of the important human manners, and it is one of the most important topics that writers wrote about in various literary genres, especially the novel, because of its impact on the souls of others and their advancement and inspiring them with a spirit of optimism. Awakening the souls and minds of the people for jihad and overcoming crises. The literature of the resistance came bearing a cause and commitment to it and defending it and its homeland, rejecting the colonizer, and with it the writer fights with his pen and writings, and also contributes to the crystallization of revolutionary national values to eliminate the colonizer. This research aims to show the manifestations of resistance in the Algerian novelist text of Malik Haddad, whose novels were characterized by the emergence of the features of the resistance that rejects the enemy.

Key words: Resistance literature- There is no one in the flowerbed to answer- the last impression - the student and the lesson - Malik Haddad.

مقدمة:

يعد أدب المقاومة كتأريخ لمراحل حياة الشّعوب والدّفاع عن الوطن والأرض وهو يهدف إلى حفظ التّاريخ والهوية وتحقيق التّحرر والتّطلع إلى الحرية. عرف العديد من دول العالم الاستعمار والاضطهاد والجزائر كبقية الدّول عانت من ويلات الحرب مما أدى إلى ظهور أقلام أدبية تدافع عن الجزائر وتثور على السّلطة الظّالمة شعرًا ونثرًا خاصةً الجنس الرّوائي –موضوع بحثنا–، عالجت الرّواية في ثناياها الواقع المرير، حيث أنّ الاستعمار الفرنسي سعى جاهدًا لمحو شخصية الجزائريين والقضاء على هويتهم، إضافةً إلى عمله على سلب أفكاره الإسلامية وعروبته، وهنا جاء الأدباء للرد على الاستعمار بالكتابة بما يُعْرَف بأدب المقاومة الّذي يعمل على رفض الآخر وإثبات الذّات ونشر الوعي بأحقية الدّفاع عن الأرض وحمل رسالة تبشيرية بالنّصر والاعتزاز، كما يعتبر كذلك أدب البحث عن الحرية والنّضال، فقد جاء ليُلْهم أفكار الثّوار ويثير فيهم روح التّحدي والصّمود أمام المُستعمر والدّعوة إلى التّحرر والاستقلال.

كما يشمل أدب المقاومة مدى التزام الأديب بقضايا وطنه ومجتمعه والتّمسك بها وعليه يهدف هذا البحث لاستكشاف مظاهر وتجليات الالتزام في روايات مالك حداد الرّوائي الجزائري وهو من الرّوائيين الّذين كتبوا باللّغة الفرنسية، وفي تحليلنا قمنا بإتباع المنهج الوصفي التّحليلي، لمحاولة الإجابة عن الإشكالية الآتية: كيف دافع حداد عن وطنه؟ وما مدى التزامه في رواياته؟ وكيف تجلت ملامح المقاومة في رواياته؟

المبحث الأول: مفاهيم عامة:

قبل أن نعمد إلى تحليل الرّوايات والكشف عن مظاهر الالتزام فيها، كان لا بد من تقديم تعريفات لأهم المصطلحات في البحث، والّتي تمثلت في مفهوم أدب المقاومة، ومفهوم الالتزام، وتقديم لمحة موجزة عن أبرز إبداعات مالك حداد الرّوائية.

المطلب الأول: مفهوم أدب المقاومة

أدب المقاومة من الآداب الإنسانية الّتي تعكس ظروف المجتمع وصراعاته، ويأتي هذا الأدب نتيجة الظّلم والقمع الّذي تعيشه الدّول المحتلة فجاء "لرفض هذا الظّلم والتّمرد عليه والانقلاب على مفاهيم الخضوع له والتّعامل معه بوصفه أمرًا واقعًا، وبالتّالي فإن هذا الأدب الإنساني يلتزم عادةً بقضايا التّحرر...، ويعكس التّجربة الثّورية الجهادية بمبادئها ومواقفها وتسجيلاتها للوقائع والأحداث."

[1] فهو أدب ثوري يدعو للتّحرر والبعث في نفوس النّاس اليقظة من مخاطر المستعمر.

تعتبر المقاومة صورة من صور الرّفض والتّمرد وعدم الاستسلام، وتاريخ العرب عرف الثّورة والكفاح، وإخفاقات تكسر القلب، وهذا ما خلّف عند الأدباء جرحًا عميقًا تحكمه نزاعات شتّى من الغضب، والرّفض، والرّعب،[2] فجسدها الأدباء في أشعار وروايات ترفض الاستعمار والاضطهاد والحرمان والفقر الّتي فُرِضَتْ عليهم من طرف العدو، ممّا دفع الكتاب إلى المطالبة بالاستقلال والتّحرر.

لقد خاض الشّعب الجزائري كفاحًا مريرًا وطويلًا ضد الاستعمار الفرنسي، الّذي سعى إلى هدم وتحطيم الشّخصية الجزائرية، وذلك بالقضاء على القيم والعادات الثّقافية والحضارية للأمة، وقد استمر هذا الكفاح مدةً طويلةً، استعمل فيه الجزائريون مختلف الوسائل لرفض هذا المستعمر السّلمية منها والعسكرية، "كانت ثورة الشّعب تتويجًا للآلام الّتي كابدها الشّعب الجزائري، بحيث أصبح أدباء الجزائر جزءًا رئيسيًا في القتال، وأصبح الموضوع الّذي تدور حوله جميع أعمالهم هو حرب التّحرير ومقاومة المستعمر، رفضًا للاستغلال والتّسلط."[3] فالأدب يعتبر من بين الوسائل السّلمية ومنه استخدمت الرّواية كسلاح للدّفاع بها وكانت معظمها باللّغة الفرنسة الّتي ساهمت في نشر القضية الجزائرية والنّهوض بأبناء الوطن وبث فيهم روح المقاومة والكفاح.

كان هدف الرّوائيين من كتاباتهم كشف المستعمر والتّعبير عن الواقع والدّفاع عن القيم والتّقاليد ووحدة الأمة، ومنه كانت الرّواية الجزائرية ذات التّعبير الفرنسي وسيلة من وسائل المقاومة، "إنّ أدباء الجزائر عبّروا عن هذا الصّراع الكامن في أعماقهم بين اللّسان الناطق والوجدان النابض"[4]، فاللّغة لم تشكل حاجزًا في الدّفاع عن الوطن وأبرز من خلالها الكتاب نزعتهم الإنسانية الّتي تتوق إلى الحرية.

المطلب الثاني: مفهوم الالتزام

– **مفهوم الالتزام لغةً:** ورد في معجم لسان العرب "لزم: اللُّزوم. والفعل لزم يَلْزَمُ، لَزِمَ الشيء يلزمه لَزما ولُزومًا، ورجل لُزَمَةُ: يلزم الشّيء فلا يفارقه. وهو في اللّغة المُلازمة للشّيء والدّوام عليه"[5] أي التّمسك بشيء ما والبقاء عليه.

وجاء في قاموس المحيط "لَزَمَه، ولازَمَه مُلازَمَةً ولِزَامًا والتَزَمه وألزَمَه إياه فالتَزَمه، أي: إذا لَزِمَ شيئًا لا يفارقه. والملازِمُ: المعانِقُ. والتَزَمَهُ: اعتَنَقَهُ"[6]، من خلال التّعريف اللّغوي في المعاجم العربية يتضح أن كلمة "التزام" لديها دلالة مشتركة وهي تعني الدّوام على شيء ومعانقته، أي التّمسك به.

- **مفهوم الالتزام اصطلاحاً:**

ورد في المعاجم اللّغوية النّقدية أنّ الالتزام هو "ظاهرة أدبية حاضرة في كل العصور لإعطاء تيار الآراء دعامةً أو إضفاءً لطابع الرّهان الفردي على مجتمع سياسي، لهذا كان التزام الكاتب حاضرًا عبر كل العصور."[7] فكل عصر كان فيه أدباء يعبرون عنه ويحملون في ثناياهم تاريخ أوطانهم وأوضاعهم، فكل كاتب يمثل مجتمعه ويكتب عنه.

وفي معجم مصطلحات الأدب يمثل الالتزام: "باعتبار الكاتب فنه وسيلة لخدمة فكرة معينة عن الإنسان لا لمجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة بالجمال."[8] الالتزام هو غاية يهدف إليها الأديب فمن خلاله يشارك قومه في قضاياهم الإنسانية والوطنية.

المطلب الثالث: مفهوم الالتزام في الأدب:

لطالما شغلت قضية الالتزام النّقاد الغربيين والعرب، وتعدّدت مصطلحاتها ويُراد بها "التزام الشاعر وجوب مشاركته بالفكر والشّعور والفن في قضايا الوطنية والإنسانية، وفيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال"[9] فالواقعيون يرون أنّ التزام الشّاعر شأنه في ذلك شأن النّاثر فلا فرق بينهما فكل واحد منهما وطريقته في التّعبير عن واقعه.

يتمثل مجال الالتزام بتعبير الرّوائيين عن نزعتهم الإنسانية "فالفنان الكامل هو الإنسان الّذي يمكنه أن يُعبّر عن العالم، وعن نفسه، وفي وقت معًا، من خلال إنتاج أدبي محدد بفترة تاريخية على أن هذا الإنتاج مع ذلك خالد وجدير بدوره بإيقاظ أصْداء، وأهل على الأخص لإثارة وانفعالات وأفكار وإمكانيات جديدة."[10] لا يكتفي الأديب الحقيقي بالتّعبير عن المجتمع فقط بل يتجاوز ذلك بمحاولته التّغيير فيه والتّأثير على القرّاء والمتلقين.

يهتم الكاتب بالكشف عن أوضاع المجتمع ومحاولة إيصال أفكاره للنّاس في أهمية التّغيير، "فغاية الأدب مساعدة الإنسان في فهم نفسه، وتنمية إيمانه بها مع تنمية مساعيه الرّامية إلى الحقيقة ومكافحة اللّؤم بين النّاس...، إذا تعذر عليك ذلك فما الفائدة من كتابتك؟"[11] فالكاتب لا يكون كاتبًا ومبدعًا إلا إذا كتب عن المجتمع والإنسانية مع الرّغبة في الإصلاح عن طريق تخيل قصص وحكايات يُجسّد فيها الأوضاع الرّاهنة في الحياة.

التزام الكاتب لا يعني أنّه مقيد ومجبر على الدّفاع أو معالجة قضية ما دون إبداء رأيه في الإبداع الأدبي، بل "هو اتخاذ رأي الأحداث الّتي يعيشها الكاتب على شريط احتفاظه بحريته الفردية في الوقت نفسه...، فالالتزام قائم على فكر واع غائص داخل أوضاع الفرد أو أوضاع المجتمع مع اختلاف نوعية الالتزام ومساره لدى كل فنان."[12] على المبدع أن يعبّر عن نفسه وغيره بطريقته وإرادته غير مجبر في فعل ذلك، إضافةً إلى ذلك عليه أن يتميز بأحكامه الخاصة ويصدر أفكاره ويطرحها في أعماله. والالتزام ليس مجرد فكرة نظرية، وإنّما هو سعي لتحقيق الهدف وغايته الفكرية وإثباتها في الوجود.

المبحث الثاني: نبذة عن الكاتب مالك حداد

كتب العديد من الرّوائيين في أدب المقاومة وباستخدام اللّغة الفرنسية، فقد "وجد الرّوائيون الجزائريون أنفسهم في مواجهة لغة الجانب "الأقوى" (آنذاك) فكانت اللّغة الفرنسية سبيلهم لمحادثة هذا الطّرف في ظل الظّروف الّتي فرضها هذا المستعمر على اللّغة العربية بصفتها اللّغة الأم"[13] ومن بين الكتاب الّذين تأثروا بهذا المنهج نجد: كاتب ياسين، مالك حداد، مولود فرعون ومحمد ديب وغيرهم ممن دافعوا عن وطنهم وقضيتهم بلغة المستعمر الّتي كانت سبيلهم الوحيد للتّعبير.

ومن هؤلاء الرّوائيين البارزين في الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية نجد "مالك حداد الّذي يعد من الكتاب الأوائل، الّذين امتازت أعمالهم بالالتزام الثّوري والبعد القومي، آمن بصدق قضية الجزائر وقوة شعبها، ولأجل أن يكون اللّسان النّاطق بحقها كلفته قيادة الثّورة، بمهمات ثقافية وإعلامية في بلدان عديدة في أوروبا والبلاد العربية."[14] فكتب العديد من الرّوايات الّتي تنبذ الاستعمار ووحشيته وتدافع عن الجزائر كما عمل على تغيير الواقع من خلال التزامه بقضاياه، ومن هذه الرّوايات الّتي يتناولها البحث هي: (الانطباع الأخير–ليس في رصيف الأزهار من يجيب–التّلميذ والدّرس)، وفي هذه الرّوايات عالج مالك حداد عدة قضايا عاشها الشّعب الجزائري والتزم بها.

مالك حداد عاش قبل وأثناء وبعد الثّورة التّحريرية فكانت عاطفته في كتاباته صادقة وأظهر من خلالها شخصيته الوطنية الثّائرة والمخلصة للوطن، شاهد في هذه الفترات كل أنواع الظّلم والاستبداد ومظاهر العبودية من خلال الاحتلال الفرنسي. فكانت روايات مالك حداد تعبر عن شعوره الأصيل كما نقل لنا معاناة الجزائريين وفسح المجال للقارئ ليعيش تلك الفترة الصّعبة في حياة الجزائريين.

تميز مالك حداد بأسلوب وتعبير مميز في كتابته حيث مزج بين الشّعر والنّثر، كما خلّد تضحيات الشّعب ففي رواية "التّلميذ والدّرس" كشف عن أهم المجازر الّتي ارتكبتها فرنسا، بقوله: "هذه الطّالبة، ذلك

الطّالب كانا يتخبطان في تقويم العهد الغربي. إنّ تموز ما عاد يعني الحصاد العاشق وإنّما عملية إنزال سنة 1830 حول مدينة الجزائر. تشرين الثّاني لا يعني أبدًا (تيبازة) المشرقة وعودة الحلاوة إلى قمم (أكفادو) وإنّما الكلب والدّم. كانت الطّالبة والطّالب يريان في كل يوم ذكرى.

في تلك الحقبة ما كان هنالك أيام عيد.

كانت تلك نهاية العالم!"[15]

في هذه الفقرة لخّص الكاتب بطابع أدبي المجازر الّتي ارتكبتها فرنسا ضد الجزائر، وكيف أصبح شباب اليوم ينظرون إلى تلك التّواريخ المليئة بالدّم والعنف، فكل يوم من أيام الجزائر يحمل حكاية حرب وقهر واستبداد.

المطلب الأول: تجليات الالتزام في روايات مالك حداد

عمل الاستعمار الفرنسي على طمس شخصية الإنسان الجزائري وهويته، فكان الأدباء الجزائريون بالمرصاد للدّفاع عن هويتهم وأرضهم وحث الشّعب على النّهوض للتّحرر من قيود المستعمر، ومالك حداد من هؤلاء الرّوائيين الّذين دافعوا عن وطنهم والتزموا بقضايا شعبهم وكتبوا وعبّروا عن الثّورة التّحريرية والمقاومة الجزائرية، وفي هذا المبحث سنحاول تسليط الضوء على الكشف عن تجليات الالتزام في أدب المقاومة في روايات مالك حداد بإبراز مدى التزامه بالشّخصية الوطنية، وإيمانه بالمستقبل ودعوته إلى الجهاد.

– الالتزام بالشّخصية الوطنية

تمثّل شخصية "خالد بن طوبال" في رواية "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" الرّجل الجزائري المقاوم الّذي التزم بمبادئه، وكان له وعي فكري وسياسي وكان وطنيًا مناضلًا "خالد بن طوبال" لم يكن وفيًّا إلا لطفولته. يروى عنه أنّه كان وطنيًا...، كان جزائريًا لأنّه عرف نفسه جزائريًا، وكان جزائريًا لأنّه كان جزائريًا."[16] كان شاعرًا يدافع عن وطنه بقلمه رغم نفيه واغترابه، عبّر "خالد" عن ارتباطه وتعلقه بوطنه وانتمائه إليه، كما نلاحظ تمسكه بدينه وعاداته ووفائه لزوجته، فرغم كل المضايقات والإغراءات الّتي أتته من زوجة صديقه؛ قابلها بالرّفض محترمًا بذلك صديقه وزوجته. "خالد" كان شريفًا في أفكاره ومبادئه ورأيه، وكان رفيقه الوحيد في غربته هو حبه لزوجته فكلما ضاقت الأمور عليه؛ يتذكرها وهي دائمًا أمام مرأى عينيه.

لم تمثّل شخصية "خالد" نفسه فقط بل مثّلت كل الجزائريين الّذين اغتربوا عن وطنهم الجزائر، ورغم كل الإغراءات والحياة الهادئة الّتي يعيشونها إلا أنّهم أصرّوا على الدّفاع عن وطنهم والعودة إليه وتحريره، وأملهم في رؤية جزائر حرّة لا تأتي إلا برفع السّلاح في وجه العدو.

يؤكد مالك على وطنيته في رواية "الانطباع الأخير" بقوله: "لا أدري إن كنت وطنيًا. ما أعرفه، وأعرفه جيدًا أنّي جزائري بل إنّي أخاف أن أكون قد أصبحت شيئًا آخر..."[17] كل ما يعرفه سعيد أنّه جزائري ويخاف من فقدان هذه الهوية بسبب حبه لفتاة فرنسية، لكنه يبقى متمسكًا بجزائريته.

رواية "التّلميذ والدّرس" قدمت لنا شخصيتين مناضلتين (فضيلة وعمر) بالرّغم من أنّهما كانا يعيشان ويدرسان في فرنسا إلا أنّهما يدافعان عن الجزائر، لم تظهر شخصية عمر في الرّواية لكن الحديث عنه كان مُطَوّلًا يكتنفه الفخر، وظهر هذا جليًّا حينما طلبت فضيلة من أبيها أن يساعد عمر فرد قائلًا: "أي فكرة تلك في أن تطلبي من خائن أن يؤوي وطنيا؟"[18] فعمر يناضل من أجل الوطن والدّفاع عنه فهو أكثر وطنية من الأب الّذي يرى نفسه خائنًا كونه لم يستطع الفصل بين هويته الجزائرية والهوية الفرنسية.

- **الالتزام بالإيمان والأمل بالمستقبل**

لمالك حداد نظرة مشرقة على مستقبل الجزائر وأنّ الثّورة التّحريرية لا بد أن تنتصر "ستنتهي الحرب، سيجد النّمل ونبات الزّعتر مكانهم في جدول توقيت الإنسان، سيتكلم البارود من أجل عيد الأضحى، سيحمل الأطفال البيض الملطخ بالألوان في شوارع قسنطينة وفي الشّوارع الأخرى، في المخابر ستبقى الأفران مشتعلة إلى ساعة متأخرة من اللّيل، ستصبح مليكة جميلة، إلهي... كم ستصبح جميلة."[19] له نظرة تفاؤل على مستقبل الجزائر ومصيرها الّذي سيتحرر من خلال الثّورة والمقاومة المباركة.

أما في رواية "رصيف الأزهار لا يجيب" دعا الرّوائي إلى التّمسك بالأمل لأنّه سيأتي يوم ويذهب الاستعمار "عندما تنصرف هذه الوحوش، فسوف تنصرف جميعًا من هنا، ويبقى الرجال...، سوف يبقى الحب والطفل الّذي لا يكون جائعًا ولا يكون مقهورًا ولا يكون خائفًا...، إنّ الصّباح سوف يأتي وهذه الجزائر الّتي يشتمونها في جميع تصرفاتهم اليومية، سوف تذكرهم بأنّ الشّقاق لا ينشأ أبدًا من سوء التّفاهم بل ينشأ من عدم الاعتراف وعدم الاحترام، وذات يوم سوف يكون الطّقس على درجة فائقة من الجمال بحيث يغادر هؤلاء الحمقى البيت نظيفًا وينصرفون، فليذهبوا!.."[20]، في هذه الفقرة يشير الرّوائي إلى الوحوش وهم الفرنسيين لما نشروه من فساد وحرب بشعة ضد الشّعب الجزائري، كما تحدث عن الأوضاع الّتي ستسود الوطن بعد طرد فرنسا، وأنّ الجزائر ستتحرر وتشرق فيها شمس جديدة.

يقول مالك حداد في رواية "التّلميذ والدّرس":

"–سيُضَاء هذا البيت.

أنا أكتفي بأن أرجو ذلك لفاضلة وعمر، لكل فاضلة وكل عمر في هذا العالم.

– أنا جدّ شقية...

"كنت في انتظار هذه الكلمة لأنها وحدها تلخص تاريخ وطن"[21].

في هذا الكلام نبرة تفاؤل وفخر رغم خطيئة فضيلة، ففضيلة ما هي إلا الجزائر ورغم ضياع هويتها ومبادئها والاختلاف بين شعبها؛ إلا أنّها ستكافح رغم الخوف من أجل تحقيق الحرية للوطن والانسجام.

للرّوائي نظرة مستقبلية صادرة من صدق شعوره، فإحساس الكاتب "يدفعه إلى أن يدق أبواب الغيب، ليستشف معالم المستقبل، فيرتفع إلى مستوى الحكمة،"[22] وهذا ما لمسناه في روايات مالك حداد الّذي كان يؤمن بعودة نور الحرية وبغد أفضل ليس كباقي الأيام الّتي مضت على الجزائر.

المطلب الثاني: تجليات الصمود والانتصار:

دعا الرّوائي مالك حداد إلى ضرورة الثّورة في وجه المستعمر وهذا ما تجسد في رواياته المدروسة في البحث.

كان خالد يتألم على حال بلاده وعلى الأوضاع الّتي يعيشها الجزائريون من تعذيب وقتل وسجن، فدعا إلى الثّورة ومحاربة العدو، "سيأتي الزّمن الّذي ينبغي أن نحتفي فيه بنصر هؤلاء الجنود الّذين لم يكونوا عسكريين نظاميين. لقد ناد خالد بن طوبال بالحرب وهو يهابها كالجراح الحقيقي الّذي ينفر من العمليات ذات الخطورة البالغة. ومع ذلك لم يكن من حل آخر. فالقوة لا تفهم إلا القوة."[23] وما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، وهذا ما رآه خالد حلًا لاسترجاع الوطن.

خالد كانت له نظرة حب وافتخار للجزائريين ويقول: "الجزائري لا يموت أبدًا"[24] فهو صامد رغم كل المواقف والصّعاب وسيحمي وطنه بكل قوته.

في رواية (الانطباع الأخير) يمثل الجسر جزءًا من سعيد، وحين بدأ العدو في استخدامه للتّخريب والغزو، وجب هدم الجسر "لن تمر الدّبابات على جسر سعيد"[25] فبتحطيم الجسر يكون سعيد قد ساند الثّورة الجزائرية، فبالرغم من أنّ الجسر كان سببًا في نشاط المدينة إلا أنّ التّضحية به كانت استشهادًا لأجل الوطن.

يتحدث الرّوائي عن ثورة نوفمبر وما أحدثته من تغيير في الجزائر "السّاعة الّتي نعيدها إلى أول يوم من نوفمبر، هذا الشّهر الّذي غيّر توقيت فصل الشّتاء إلى الأبد. السّاعة الّتي تحدد الوقت في عرس الموتى، في ولادة الحقائق، السّاعة الّتي تعرف في أي ساعة قُتِل هذا الجزائري أو ذاك..."[26]، ليبين كذلك أنّ ميلاد وتاريخ الجزائر كان مع ثورة نوفمبر" في حين أنّ الجزائري ابتدأ الحساب في أول يوم من الشّهر الحادي عشر من سنة ألف وتسع مئة وأربعة وخمسين.

قبل هذا كانت مسألة جبر.

"انتهت الكتابة بالحروف"[27] هنا يثبت الرّاوي على القيام بالثّورة والتّغيير، فما كان قبل نوفمبر غيّر حسابات وتعقيدات وكلامًا لم يأتي بنتيجة، إلا مع قيام الثّورة وطرد المستعمر والاعتزاز بالنّفس، هنا إبراز لقيام ثورة مجيدة لبناء الجزائر.

يثبت سعيد على إرادته وعزيمته في الكفاح، يقول: "كان جيل سعيد جيل صانعي الجسور، جسور الإرادة القوية."[28] فجيل نوفمبر كان يريد الحرية والتّضحية في سبيل الوطن والثّبات في قراراته، فالحرية وجب أخذها من المحتل فكان لا بد من الاستيقاظ.

صوّر لنا مالك حداد في رواياته المعاناة الّتي كان يتلقاها الجزائريون وبشاعة فرنسا، يقول الرّاوي: "في أسفل الطريق تسمع الدّبابات تتحدث خبط عشواء. تطلق النّار بلا تبصر، بلا قناعة، لم تشاهد الطائرة أي شيء بعد لم تعثر على الطريدة بعد. على المنظار أن يبحث. على جهاز الرّاديو أن يعيل صبره توارت أكمة في الجهة اليمنى. نثرت القذيفة كل شيء في الفضاء. لحسن الحظ لم يكن هناك أحد."[29] كان المستعمر الفرنسي يستخدم مختلف آليات الدّمار بوحشية على المجاهدين.

مالك حداد ناد إلى الثّورة ودعا الجميع إلى المشاركة فيها حتّى الصّخور والممرات بقوله: "أيّتها الصّخور! كوني صديقة الّذين ليست لهم طائرات ودبابات. أيّها اللّيل! لا تتأخر...، الممرات تحارب. الينابيع والسّحب تحارب. إنّها حرب ذات حدود مبهمة بألف وألف مركز ثقل."[30] الجميع يبحث عن الحرية فعلى الجميع المقاومة ورفع السّلاح في وجه العدو مهما كانت الوسائل.

في رواية "التّلميذ والدّرس" جاء طفل فضيلة رمزًا للثّورة بقول الرّوائي: "بشرفي إنّ لهذا الطفل قيمة كالقدر!! إنّه هو الّذي يصنع إذا التّاريخ...، لقد ولد إذن في واقع بطنك وفي بطن التّاريخ"[31] فالطفل سيولد والثّورة ستولد رغم الخوف والظروف الرّاهنة آنذاك ستخرج وتتحرر من كل القيود وتثبت ذاتها في الوجود بإصرارها واندفاعها وقوة شعبها.

عُرف عن مالك حداد أنّ دفاعه عن الثورة كان مختلف عن الأدباء الآخرين، فقد رسم جو الحرب في رواياته بطريقة منفردة عن غيره حيث ركّز على جو القلق والتّوتر الّذي يطبع الحياة العامة أكثر مما ركّز على الأحداث والوقائع،[32] وهذا ما لاحظناه في شخصياته الرّوائية كخالد بن طوبال في رواية "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" وسعيد في رواية "الانطباع الأخير" والّدكتور وابنته فضيلة في رواية "التّلميذ والدّرس"، بهذا يكون مالك حداد روائي تميز عن غيره في الكتابة لكنه يتفق معهم في الالتزام بالثّورة والتّشبث بها.

تحدث مالك حداد عن أحداث 8 ماي 1945م في روايتي (الانطباع الأخير–ليس في رصيف الأزهار من يجيب)، فهذا اليوم كان يومًا مشهودًا للجزائريين، فقد تركت هذه الأحداث والمجازر–الّتي وقعت في سطيف وخراطة وقالمة وأخذت معها عشرات الآلاف من الضّحايا الجزائريين–جرحًا كبيرًا في نفوس وقلوب الجزائريين، فحركت مشاعر الأدباء فكتبوا وعبروا وتأسفوا عن هذه الأحداث وكشفوا بشاعة المستعمر، ومن هنا يظهر مدى الوعي الوطني للروائي والتزامه الثوري، وذكر هذا اليوم كذلك في رواية "التّلميذ والدّرس" ووصفه ب "شهر الشّر" 1945، سنة الشقاء الطقس الجميل الّذي يأتي بالثّياب الفاقعة. الّذي ينزل الدّموع. ذلك الشّهر، ذلك اللّعين بين كل الشهور، ذلك الجحيم!"[33] لقد صوّر الرّوائي شهر ماي على أنّه شهر ربيعي تتنوع فيه الأزهار والورود والأمطار، لكن عند الجزائريين فهو شهر اليأس والعذاب والموت ففيه قمع المستعمر بوحشية المتظاهرين الّذين خرجوا من أجل المطالبة بالحرية والعدالة.

كما يرى بطل الرّواية أنّ حياته الحقيقية بدأت مع مظاهرات 8 ماي 1945 بقوله: "أنا الدّكتور قدير أقطن في بلدة صغيرة من فرنسا وسني منذ سنة 1945."[34] هذا التّاريخ كان ميلاد الجزائريين الأحرار الّذين تيقنوا أنّه لا اتفاق ولا هدنة مع فرنسا إلا الانفصال عنها وتحقيق السّيادة للجزائر واستقلالها التّام.

المطلب الثالث: تجليات الانتماء إلى الأرض والهويّة:

تحدث الرّوائي كثيرًا عن المشاكل الّتي يواجهها خالد في فرنسا وحنينه للوطن وزوجته وأطفاله "وفي فرنسا يحدق خالد وجهًا لوجه في عيني السّأم، في سأمه نفسه"[35] فباريس زادته ألمًا وتأزمًا وحسرةً وحيرةً، "إنّ خالد يقف على الضّفة الأخرى، وهو ينفصل عن "الآخرين" الوحدة مملكته، والصّمت يغدو، شيئًا فشيئًا حصنه."[36] فهو يعاني وحده ويقاسي من الغربة والوحدة.

حتّى الأيام تغيرت عند خالد "يمر كل يوم أطول من سابقه. وكل يوم يكون أشدّ عبوسًا. وكل يوم أكثر درامية."[37] أيامه صارت طويلة ومليئة بالملل والعبوس والوحدة القاتلة.

رغم بعده عن وطنه إلا أنّه لم يتوقف عن التّفكير فيه ولو للحظة "البلاد هي قبل كل شيء... ففي حكمة الشّقاء العجيبة وأمام الله تعالى وأمام النّاس يصير وطني وعد الغابات السّعيدة والرّمال الغافية والجبال المكرّمة والصّبية العابثين الّذين يلعبون بالكعاب في شارع العرب..."[38]، يمثّل الوطن لخالد هويته فكثيرًا ما كان يسترجع أيامه أو مناظر من قسنطينة الّتي تذكره بنفسه وهويته فهذا المكان جزء منه.

ضيّقت الغربة على خالد حياته فكان له إيمان قوي للعودة "سأعود إلى بلادي،"[39] فهو يشعر كأنّه في سجن والضّجر قتله ببعده عن وطنه لكن يبقى الأمل في العودة إلى الوطن والاستمتاع بخيراته.

لا يوجد مكان في هذه الحياة بالنّسبة للإنسان أجمل من الوطن الّذي ولد وترعرع فيه؛ ففيه ذكريات الصّبا وضحكات الطفولة البريئة، فهو جزء من كيان الإنسان فمهما ابتعد عنه؛ فإنّ الذّكريات تبقى راسخةً في ثنايا مخيلته وهذا جزء يسير من الوفاء لهذه الأرض الّتي حملته على ظهرها منذ ولادته إلى أن يحين الأجل ويدفن فيها فما أرحم الوطن.

الخاتمة:

–لأدب المقاومة في الجزائر دور هام في رفض الظّلم والقهر، وشكل من أشكال النّضال والمقاومة، من خلال حث الشّعب على الكفاح في سبيل نيل الحرية.

–يعتبر أدب المقاومة تأريخ لتاريخ الجزائر، فهو قد خلد وكتب وعبّر عن أمال الشّعب الجزائري ومآثره ومعاناته.

–الرّوائي مالك حداد من الرّوائيين الجزائريين الّذين تتجلى ملامح المقاومة في رواياتهم بكثرة خاصةً من كتبوا باللّغة الفرنسية.

–أخذ مالك حداد هموم بلده على عاتقه، فقاوم المحتل بكتاباته وثقافته، وأخذ لغة العدو سلاحًا له يدافع به، فهو كان يخاطب الفرنسيين باللغة التي استمدها منهم.

–رغم كتابة مالك حداد بالفرنسية إلا أنّه كان يعبر عن أصالته واعتزازه بهويته وانتمائه الجغرافي إلى الجزائر، وعاداته الاجتماعية.

–كانت روايات مالك حداد وعاءً احتوى الثّورة، وكشف عن معاناة الشّعب الجزائري والجوانب الخفية للاحتلال، كما أظهرت هذه الرّوايات الإنسان الجزائري ومدى قدرته في طرد العدو ورفض الاستبداد.

–عبّر مالك حداد من خلال رواياته عن الثّورة الجزائرية وأمله في الاستقلال، وعن دوره في الثّورة وتشجيع الشّعب من أجل المقاومة وتأكيده على الكفاح والنّضال.

–التزام الرّوائي بقضايا وطنه والدّفاع عنه وتنبؤه بالمقاومة والثّورة الّتي يراها الحل الوحيد للحرية، هو ما جعل روايات مالك حداد تصنف ضمن أدب المقاومة.

–مالك حداد له رؤية خاصة تميزه عن غيره اتجاه ثورة التّحرير، فهي عبارة عن عواطف وأحاسيس أكثر من أفكار كما كان بعيدًا عن التّعصب.

–يحتل أدب المقاومة أهميةً كبيرةً لذا على الباحثين الاهتمام به أكثر بعقد ملتقيات وندوات فيه.

–من خلال البحث في أدب المقاومة لاحظنا قلة الدّراسات في الرّواية مقارنة بالشّعر وعليه لا بد من الاهتمام بالجانب النّثري أكثر في التّحليل.

الهوامش:

[1]– عادل الأسطه، أدب المقاومة (من تفاؤل البدايات إلى خيبة النّهايات)، ط2، مؤسسة فلسطين للثّقافة، دمشق، سورية، 1429هـ/ 2008م، ص 9.

[2]– ينظر: سلمى الخضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشّعر العربي الحديث، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، أكتوبر 2008، ص16.

[3]– عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411هـ/ 1991م، ص63.

[4]– عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ص 67.

[5]– أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج: 12، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 542/541.

[6]– مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، القاموس المحيط، د.ط، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1429هـ/ 2008م، ص 1469.

[7]– سعيد علوش، معجم مصطلحات النّقد الأدبي المعاصر، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، مارس 2019، ص269.

[8]– مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، د.ط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1974، ص 79.

[9]– محمد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، د.ط، نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، أكتوبر 1997، ص456.

[10] –المرجع نفسه، ص155.

[11]– رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النّقد الأدبي (بين النّظرية والتّطبيق)، د.ط، النّاشر منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1988، ص 134.

[12]– المرجع نفسه، ص 147.

[13]– نوال بن صالح، الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التّحرير صراع اللّغة والهوية، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد السّابع، 2011، ص222.

[14]– نبيلة زويش، إشكالية الهوية في رواية (الانطباع الأخير لمالك حداد)، مجلة المعارف، جامعة البويرة، الجزائر، العدد 11، ديسمبر 2011، ص15.

[15]– مالك حداد، التّلميذ والدّرس، تر: سامي الجندي، د.ط، منشورات وزارة الثّقافة، الأردن، 2008، ص 35.

[16]– مالك حداد، ليس في رصيف الأزهار من يجيب، تر: ذوقان قرقوط، د.ط، الهيئة العامة لقصر الثّقافة، القاهرة، مصر، 1999، ص 35.

[17]– مالك حداد، الانطباع الأخير، تر: السّعيد بوطاجين، د.ط، منشورات الاختلاف، الجزائر، د.ت، ص21.

[18]– مالك حداد، التّلميذ والدّرس، ص 129.

[19]– مالك حداد، الانطباع الأخير، ص 122.

[20]– مالك حداد، ليس في رصيف الأزهار من يجيب، ص 37.

[21]– مالك حداد، التّلميذ والدّرس، ص 52.

[22]– بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثّورة، ط2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2013، ص 26.

[23]– مالك حداد، ليس في رصيف الأزهار من يجيب، ص 72.

[24]– المصدر نفسه، ص 39.

[25]– مالك حداد، الانطباع الأخير، ص 30.

[26]– المصدر نفسه، ص 100.

[27]– المصدر نفسه، ص 102.

[28]– المصدر نفسه، ص 105.

[29]– المصدر نفسه، ص 121.

[30]– المصدر نفسه، ص 11/122.

[31]– مالك حداد، التّلميذ والدّرس، ص 71.

[32]– ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 110.

[33]– مالك حداد، التّلميذ والدّرس، ص 35.

[34]– المصدر نفسه، ص 22.

[35]– مالك حداد، ليس في رصيف الأزهار من يجيب، ص 44.

[36]– المصدر نفسه، ص 47.

[37]– المصدر نفسه، ص 50.

[38]– المصدر نفسه، ص 95.

[39]– المصدر نفسه، ص128.

المصادر والمراجع:

– أحمد منور، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

– بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثّورة، ط2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2013.

– رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النّقد الأدبي (بين النّظرية والتّطبيق)، د.ط، النّاشر منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1988.

– سعيد علوش، معجم مصطلحات النّقد الأدبي المعاصر، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، مارس 2019.

– سلمى الخضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشّعر العربي الحديث، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، أكتوبر 2008.

– عادل الأسطه، أدب المقاومة (من تفاؤل البدايات إلى خيبة النّهايات)، ط2، مؤسسة فلسطين للثّقافة، دمشق، سورية، 1429هـ/ 2008م.

– عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411هـ/ 1991م. –مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، د.ط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1974.

– أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج: 12، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت.

– مالك حداد، الانطباع الأخير، تر: السّعيد بوطاجين، د.ط، منشورات الاختلاف، الجزائر، د.ت.

– مالك حداد، التّلميذ والدّرس، تر: سامي الجندي، د.ط، منشورات وزارة الثّقافة، الأردن، 2008.

– مالك حداد، ليس في رصيف الأزهار من يجيب، تر: ذوقان قرقوط، د.ط، الهيئة العامة لقصر الثّقافة، القاهرة، مصر، 1999.

– مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، القاموس المحيط، د.ط، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1429هـ/ 2008م.

– محمد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، د.ط، نهضة مصر للطباعة والنّشر والتّوزيع، أكتوبر 1997.

المجلات:

– نبيلة زويش، إشكالية الهوية في رواية (الانطباع الأخير لمالك حداد)، مجلة المعارف، جامعة البويرة، الجزائر، العدد 11، ديسمبر 2011.

– نوال بن صالح، الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التّحرير صراع اللّغة والهوية، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد السّابع، 2011.